الفصل الخامس
دعوة النبى يونس فى بطن الحوت

● الدعاء الصادق هو العباده كما ورد فى الحديث النبوى الشريف: «الدعاء هو العبادة»؛ لأن الدعاء ترجمة وبيان عملى على توحيد الله تعالى والخضوع له والرجاء فيه والتوكل عليه والثقة به، قال تعالى: ﴿ **ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ** ﴾ [غافر: ٦٠] وأصدق ما يكون الدعاء ساعة الكرب ووقت الخطر والضيق؛ ولذا يمنن الله تعالى على عباده بإجابة دعاء المضطر والمظلوم وإن كان كافرا فهو المغيث يلبى دعاء من استغاث به وجأر بذكره وهو الكريم يجيب مَنْ ناداه:

هو أول هو آخر هو ظاهر هو باطنٌ ليس العيونُ تراه

– يقول تعالي: ﴿ **أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ** ﴾ [النمل: ٦٢] ويقول تعالى: ﴿ **فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ** ﴾ [يونس: ٩٨]. ولذا قص علينا القرآن الكريم كثيراً من دعوات الأنبياء والصالحين، وقد جاءت دعواتهم فياضة بالثناء على الله تعالى وتمجيده وتوحيده والتضرع إليه مع الاعتراف بالذنب والإنابة إلى المولى عزّ وجل بالتوبة النصوح وكان البدء بالخطأ والتوبة مع سيدنا آدم أبى البشر عليه السلام وأمنا حواء حين أكلا من الشجرة المحرمة واعترفا بالذنب فتاب الله عليهما: ﴿ **قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ **فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴾ [البقرة: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿ **هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ** ﴾ [آل عمران: ٣٨]، وقوله تعالى على لسان نبى الله يوسف عليه السلام: ﴿ **رَبِّ قَدْ**

آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]

– ولكن يبقى لدعوة المظلوم والمكروب مكانة خاصة فى تأكيد العبودية لله وتأكيد الكمال لله تعالى والاعتراف بالعجز والضعف البشرى أمام قُدرة الواحد القهار، وتبرز فى هذا الصدد ثلاث دعوات من دعاء الرسل والأنبياء، كدعوة أبي البشر الثانى سيدنا نوح عليه السلام فى قوله تعالى: ﴿**وَنُوحاً إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ**﴾ [الأنبياء: ٧٦] ودعوة نبى الله أيوب عليه السلام فى قوله تعالى: ﴿**وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ**﴾ [الأنبياء: ٨٣، ٨٤] والثالثة هى دعوة المكروب على لسان نبى الله يونس عليه السلام فى قوله تعالى: ﴿ **وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨]

● إن دعاء المكروب دعاء صفاء ونقاء، ليس بينه وبين الله حجاب، وتتفاعل معه ملائكة العرش، وهو سبيل لتفريج الكروب وباب من أبواب رحمة الله ورضوانه وكرمه ونصره ولطفه اللطيف ورحمته الرحيمة، وفى هذا يقول الرسول ﷺ: «من فُتح له باب الدعاء فتحت له أبواب الرحمة، وما سُئل الله تعالى: شيئا أحب إليه من أن يسأل العافية، وإن الدعاء ينفع مما نزل وما لم ينزل ولا يرد القضاء إلا الدعاء فعليكم بالدعاء» (أخرجه الترمذى).

– وليس من شك أن عبادة الله وتوحيده بالذكر ولزوم الاستغفار، والتسبيح وقت الرخاء ينفع المؤمن وقت الشدة وعند وقوع البلاء؛ ولذا ورد فى الهدي النبوى الشريف: «تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة» وفى إيضاح هذا المعنى يقول صاحب (البركة فى القرآن) داعيتنا الإسلامى الدكتور محمد أحمد

طه: «ومعرفة الله فى الرخاء أن يكون الإنسان على ذكر من ربه وعلى صلة بخالقه، هذه الصلة من شأنها أن تعصم الإنسان من الوقوع فى الأخطاء ومن اقتراف الذنوب والآثام، وكذلك تكون رِدْءًا له إذا ألمت به محنة، ولقد كان لنا فى نبى الله يونس الأسوة الحسنة فقد كان ذاكراً لله فى كل أحواله متصلاً به فى حركاته وسكناته، فلما أصابه ما أصابه ودعا الله نجاه الله بسبب ذكره وتسبيحه إياه، وقد بيَّن الله لنا ذلك فى القرآن حيث يقول: ﴿ **فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ** ﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤]

– وينقل الشيخ المبارك عن ابن جرير الطبرى فى تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ** ﴾ قوله: قال قتادة: ﴿ **فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ** ﴾ كان كثير الصلاة فى الرخاء فنجاه الله بذلك. قال: وقد كان يقال فى الحكمة إن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا ما عثر، فإذا صُرع وجد مُتكأ، ومنه قال: كان طويل الصلاة فى الرخاء، وعن أنس بن مالك أن يونس النبى حين بدا له أن يدعو الله بالكلمات حين ناداه وهو فى بطن الحوت فقال: اللهم لا إله لا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين، فأقبلت الدعوة تحت العرش فقالت الملائكة يا رب هذا صوتٌ ضعيفٌ معروفٌ فى بلاد غريبة. قال: أما تعرفون ذلك؟ قالوا: يا رب مَنْ هو؟ قال: ذلك عبدى يونس، قالوا: عبدك يونس الذى لم يزل يُرفع له عملٌ متقبلٌ ودعوةٌ مستجابة، قالوا: يا رب أَوَ لا يُرحم بما كان يصنع فى الرخاء فتنجيه من البلاء؟ قال: بلى فأمر الحوت فطرحه فى العراء» (يونس فى القرآن والتوراة ص ١١٠).

– ولذا كان دعاء يونس عليه السلام فى بطن الحوت دعاء المكروب المضطر وكان دعوة مستجابة؛ لأنها مشتملة على اسم الله الأعظم الذى إذا سُئل به أعطى وإذا دُعى به أجاب، كما حدّث بذلك المصطفى ﷺ. قال راوى الحديث سيدنا سعد بن أبى وقاص مستفسراً عن دعوة يونس عليه السلام. قال: «يا رسول الله. أهى ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال: هى ليونس خاصة

وللمؤمنين عامة إذا دعوا بها ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ **فنادى في الظُّلُمات أن لا إله إلاَّ أنت سُبحانك إني كُنتُ من الظَّالمين * فاستجبنا لهُ ونجيناهُ من الغم وكذلك نُنجي المُؤمنين** ﴾ فهو شرط من الله لمن دعاه به » (المصدر السابق ص ١١١).

– ويبسط داعيتنا المبارك لدعوة نبى الله يونس بنقل مفيد وأخذٍ نجيبٍ عن العالم العابد الشيخ الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الجامع الأزهر الأسبق من كتابه (فى رحاب الكون) فيقول: يقول الشيخ الجليل الدكتور عبد الحليم محمود عن هذه الدعوة: « وهى دعوة تبدأ بالتوحيد الخالص يتمثل فى قوله: (لا إله إلا أنت) وتثنّى بالتنزيه. تنزيه الله عن كل ما يتنَافى مع الكمال، وذلك يتمثل فى قوله: (سبحانك)، ثم تنتهى بالاعتراف الخاشع المتمثل فى قوله: « إنى كنت من الظالمين ». وهذه الكلمات القليلة التى يتمثل فيها الإيجاز فى اللفظ، والتى يتمثل فيها السمو السَّامى فى المعنى، لا تطلب شيئًا فى صراحة ولا تنادى بشئ بأسلوب مباشر، ولكنها مفعمة بالطلب، مفعمة بالاستغاثة، فقد سأل يونس ربه على ألطف وجه وأبلغه، فهو لم يسأله الخلاص وإنما اعترف لربه بالكمال وأقر على نفسه بالظلم وهذا يدل على أدب يونس وذوقه العالى وهذا شأن الأنبياء مع الله ».

● رحم الله شيخ الجامع الأزهر الأسبق وعالمه العابد الذى شهد له الأعداء قبل الأصدقاء شهادة بالصلاح والتقوى وحُسن قيامه على الأزهر جامعًا وجامعة، والذى خاض جهادا متواصلا لنصرة الإسلام الحنيف وشريعته الغراء حتى قبضه الله إليه واستردَّ منه وديعته ليحيا فى رحابه فى دار الخلد فى مقعد صدق عند مليك مقتدر، وبارك الله فى داعيتنا الإسلامى فضيلة الدكتور محمد أحمد طه أستاذ التفسير بجامعة الأزهر وأحد أبناء الأزهر وعلمائه المخلصين، وهو العالم السكندرى صاحب الدراسات القرآنية المباركة من مثل دراسته القيمة فى منهج الشهرستانى فى تفسير القرآن الكريم والتى هى أطروحته للدكتوراه، ومثل كتابه

المبارك ودراسته القرآنية « البركة فى القرآن » وكتابه « المال فى ضوء القرآن » ودراسته اللطيفة « الزينة فى القرآن » ثم أتت دراسته الجديدة « التسبيح والتحميد كما ورد فى القرآن المجيد » ولديه الجديد والجديد ببركة القرآن المجيد، هذا فضلاً عن أحاديثه المفيدة لإذاعة الإسكندرية وفعالياته فى إثراء البرامج الإذاعية الحوارية مع غير إذاعى نابه وبخاصة مشاركته فى برنامج « رحلة مع الإنسان » مع الإذاعيّ السكندريّ الرائد الأستاذ محمد الطنبداوى، وهو البرنامج الذى عمَّر طويلاً لقيمته العلمية والأدبية، والذى عُنى خلاله صاحبه بإبراز الإعجاز الإلهى فى خلق الإنسان فى جميع أجزائه وأعضائه، ولفتنا إلى بديع صُنع الله الذى أتقن كل شئ؛ باستضافة ومحاورة قمم أهل العلم والمتخصصين على أرفع درجات التخصص وأدقه مع التناول الأدبى والدينى مؤيدا بما ورد فى آي الذكر الحكيم والحكمة العربية والنص الأدبى شعره ونثره؛ ولذا نجح ذلك البرنامج نجاحًا كبيرا وتمت إعادة إذاعته فى الإذاعات العربية ومن بينها إذاعة البحرين وإذاعة الكويت، وكيف لا وقد استضاف صاحبه ومعده الأستاذ الطنبداوى النابهين فى العلم والطب والمباركين فى الدرس القرآنى أمثال (صاحب البركة) الدكتور محمد أحمد طه !؟ جزاه الله عن الإسلام والقرآن خير الجزاء ونفعنا بعلمه ودعائه وثبتنا وإياه على الإيمان وختم لنا بخاتمة السعادة .

* * *